التميز في النص الشعري الأندلسي
-الزجل أنموذجاً-

بوفلاقة محمد سيف الإسلام
كلية الآداب جامعة عنّابة، الجزائر

ملخص

تهدف الدراسة إلى تحديد مفهوم «الزجل»من خلال آراء النقاد، والدارسين القدماء ،والمحدثين،كما تسعى إلى إبراز بعض مظاهر الجدة في الخطاب الشعري الأندلسي،من خلال هذا الفن،ونقصد بالتميز-هنا- السير على نهج مخالفٍ للتجربة الشعرية في بلاد المشرق العربي.

وقد قامت الدراسة على تقسيم الموضوع إلى ما يأتي :

-استهلال

أولاً : مفهوم الزجل .

ثانياً : الزجل:النشأة والتطور.

ثالثاً : أنواع الزجل.

رابعاً: نماذج تطبيقية.

-خاتمة

الكلمات المفتاحية: الزجل ،الأندلسي، النص، التميز ، أنموذجاً.

Summary

This study aims to define the concept “Zajal” through the critics’ views and the ancient and modern scholars. Also it seeks to highlight some novelty aspects in the Andalusian poetry discourse through the art of Zajal.

to use a different Levant’s typical and to follow an approach that differs from the poetic experience in the Levant.

This study has been divided the topic as the following:

Introduction.

First: The concept of Zajal. Second: Zajal: the origin and development.

Third: types of Zajal.
Fourth: Application models.
Conclusion.

Keywords: Zajal, Andalusian, text, distinction, model

استهلال

يعد الزجل فناً من فنون الشعر المستحدثة في البلاد الأندلسية، حيث ظهر بعد الموشحات، فالعلاّمة عبد الرحمن بن خلدون يُرجح دخوله المتأخر، والواضح أن ظهوره جاء بعد الموشحات، يقول:«ولما شاع فن التوشيح في أهل الأندلس، وأخذ به الجمهور لسلاسته، وتنميق كلامه، وترصيع أجزائه، نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله، ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية، من غير أن يلتزموا فيه إعراباً، واستحدثوا فناً سموه الزّجل، والتزموا النظم فيه على مناحيهم إلى هذا العهد، فجاؤوا فيه بالغرائب، واتسع فيه للبلاغة مجال بحسب لغتهم الأعجمية» [1].

أولاً :مفهوم الزجل

أ-المفهوم اللغوي

إن كلمة الزجل في اللغة تعني التطريب، ورفع الصوت، وكذلك تعني الأصوات، لذلك يُقال: سحاب زجلٌ : إذا كان فيه الرعد، ويقال لصوت الأحجار ،والحديد ،والجماد أيضا : زجلٌ.

ويبدو أن الزجل قد ارتبط بمفهومه اللغوي الذي هو التطريب، والصوت، وسُمي به لملازمته الغناء، والزجل هو اللعب، والجلبة، والتطريب، ورفع الصوت، وزجل كفرح:طرب ،وتغنى، ورفع صوته، وأجلب فهو زجل، وزاجل، ونجد في معجم تاج العروس استعراضاً لمعاني كلمة الزجل، حيث يقول الزبيدي:«والزجل محركة اللعب، والحلبة، وخص به(التطريب)، وأنشد سيبويه:

له زجل كأنه صوت حاد إذا طلب الوسيقة أو زمير

والزجل أيضاً(رفع الصوت)، وللملائكة زجل بالتسبيح، والتهليل، أي صوت رفيع عال، وقد (زجل كفرح) زجلاً ،فهو(زجل وزاجل)، وربما أوقع الزاجل على الغناء.قال :وهو يغنيها غناءً زاجلاً(ونبت زجل الصوت)، كذا في النسخ ،و الصواب صوتت(فيه الريح)... والزجل محركة نوع من الشعر معروف محدث » [2].

ونُلفي في المعجم الوسيط هذه التعريفات اللغوية :«زجل زجلاً: لعب، وأجلب، ورفع صوته، وطرب فهو زجلٌ، وزاجلٌ ، وهي زجلة، ويُقال زاجل النعام: قلب البيض في أيام الحضان، والزاجل: الرامي، وقائد العسكر، وجمعهازواجل، وحمامالزاجل:

ضربٌ من الحمام يُرسل إلى مسافات بعيدة بالرسائل، والزجل:نوع من الشعر تغلب عليه العامية، وسحابٌ ذو زجل:ذو رعد، وجمعه أزجال» [3].

والزَّجل في اللغة:الصوت...، ويُقال لصوت الأحجار والحديد والجماد أيضاً، قال الشاعر

مررتُ على وادي سِياثٍ فَراعني بهِ زَجلُ الأحجار تحت المعاولِ
تَسلمها عبلُ الذرع كأنما جنى الدهر فيما بينهم حرب وائل
فقلتُ له :شلت يمينك، خلّها لمُدَّكِرٍ، أو مُخْبر، أو مسائل
مَنازلُ قوم أذْكرَتْنا حَديثَهم ولم أرَ أحلى من حديثِ المَنازل

وإنما سُمي هذا الفن زجلاً، لأنه لا يلتذ به، ولا تُفهم مقاطع أوزانه، ولزوم قوافيه، حتى يُغنى به ويصوت، فيزول اللبس بذلك.

ب-المفهوم الاصطلاحي

إن الزجل بمفهومه الاصطلاحي هو شعر شعبي يُنظم بلغة العامة، لا تُراعى فيه قواعد الإعراب، ولا الصيغ الصحيحة للكلمات، فهو ينظم من الكلام الدارج .يقول صفي الدين الحلي في الباب الأول الذي وسمه ب(الفن الأول:الزجل)، في كتابه:«العاطل الحالي والمرخص الغالي»:«وهو أرفعها رتبة، وأشرفها نِسبة، وأكثرها أوزاناً، وأرجحها ميزاناً، ولم تزل إلى عصرنا هذا أوزانه متجددة، وقوافيه متعددة، ومخترعوه أهل المغرب، ثم تداوله الناس بعدهم.

و هناك من الباحثين من تناول المعنى الأدبي، والاصطلاحي في تعريفه للزجل، فأشار إلى أن الزجل هو الشعر الملفق من الكلام الملحون، يتميز بتعدد أوزانه، وتنوع قوافيه، وعدم خضوعه لبحور الخليل المعروفة.

غير أن هذا التعريف لا يشمل الزجل،بل يشمل أنماطاً أخرى من النظم، مثل:المواليا، والكان وكان، فهي من الشعر الملفق الملحون، وتتميز بتعدد أوزانها، وتنوع قوافيها، وعدم خضوعها للبحور التي اخترعها الخليل بن أحمد الفراهيدي.

وهناك من الدارسين من يُعرف الزجل،بأنه ضرب من الشعر تتعدد قوافيه، وأوزانه لرغبة ناظمه، وهو يخضع لقيدي الوزن الواحد، والقافية الواحدة، كما أنه لا يعتمد في هيكله على الخرجة، كالموشح، بخلاف القصيدة العمودية التي تعتمد المطلع أولاً.

ويبدو أن خللاً ما يحوم حول هذا التعريف، فالزجل لا يخضع في الحقيقة لقيدي الوزن، والقافية الواحدة.

ومن بين التعريفات التي قُدمت عن الزجل، أنه فن غنائي يسير في وزنه على حسب ما يتفق مع الغناء، ولا يلتزم في ذلك بحور الشعر المعروفة، بل يعتمد في محاكاته اللفظية على صور الحياة الشعبية، فيستقي منها ألفاظه، وتراكيبه، ثم يُبرزها في صورة فنية.

ولا شك أنه من الصعب جداً إيجاد تعريف دقيق للزجل، حيث إنه لا يشمل فنون القول الأخرى، ويكون جامعاً ومانعاً، ولكن ربما قد نقترب شيئاً ما من الدقة، إذا قلنا إن الزجل منظومة غنائية أندلسية، وُضعت أساساً لتُلحن، وتُغنى، وتسير في موسيقاها حسب الوزن، والقافية التقليديين، وتتبع نظاماً جديداً مُتحرراً نوعاً ما، حيث يتغير الوزن، وتتعدد القافية، لكن مع التزام التقابل في الأجزاء المتماثلة، وتُصاغ بالعامية، فهذا التعريف ربما، لا ينطبق إلا على الزجل وحده [4]

ويبدو أن بداية استعمال كلمة الزجل في معناها الاصطلاحي، ارتبطت بظهور هذا الفن في البلاد الأندلسية، غير أن هناك من يرى أن لفظ الزجل كان في الأصل يُطلق على النوع الشعبي، ثم أُطلق على النوع الشبيه بالتوشيح لفظ(هزل)، ثم اختلط اللفظان فيما بعد، وقد شاع لفظ الزجل بصفته اسماً للفن الشعري، وهو مجرد من الإعراب، ومتعدد القوافي، ومتجدد الأوزان، وقد أطلق بعض المغاربة لفظ الزجل للدلالة على ما ينظمون من شعر بالعامية [5]

ومن بين ما يجمع التعريفات التي قُدمت عن الزجل، هو أن الزجل«شعر نظم بلغة العامة، ولهجة كلامهم، لا تراعى فيه قواعد الإعراب، ولا الصيغ الصحيحة للكلمات، بل ينظمونه من الكلام الدارج، وألفاظ الكلام العادي، الذي يدور بينهم في الحديث، على نحو ما هو شائع حتى الآن في العربية.

وقد نُظمت الأزجال من البحور القديمة، ومن أوزان جديدة مشتقة من الأوزان القديمة، وتشترك معها في الروح الموسيقي العام، الذي ينتظم كل كلام منظوم في اللغة العربية.فلغة الأزجال منذ القرن السادس الهجري هي لهجات الكلام التي اختلفت بين البيئات في نواح كثيرة من الناحية الصوتية، وصيغ المفردات، وتخير الألفاظ، ولهذا يصعب الحكم على تلك الأزجال القديمة، والتمييز بين الحسن فيها والقبيح، لبعدنا عن زمان تلك اللهجات وبيئاتها» [6].

ويبدو من خلال حديث صفي الدين الحلي، في كتاب:«العاطل الخالي و المراخص

الغالي»، أن أوزان الزجل تطورت من الأوزان الخليلية، وتأثر شعراء الزجل بالأوزان التي اخترعها الخليل بن أحمد الفراهيدي، فهو يقول: «وأوّل ما نظموا الأزجال جعلوها قصائد مقصّدة، وأبياتاً مجردة في أبحر عروض العرب بقافية واحدة كالقريض، لا يُغايره بغير اللحن واللفظ العامي، وسموها القصائد الزجلية.فإذا حكم عليهم فيها لفظة معربة، غالطوا فيها بالإدماج في اللفظ، والحيلة في الخط، كالتنوين، فإنهم يجعلون كلّ منون منصوباً أبداً، ويكتبون اللفظة بمفردها مجردة من التنوين، وبعدها ألفاً ونوناً، مثل أن يكتبوا(رجُلاً)على هذه الصورة(رجل ان)، وكالمدّ، فإنهم إذا اضطروا إلى لفظة(إحياء)كتبوها(إحياي)، ولفظوا بها كذلك» [7].

ثانياً :الزجل :النشأة والتطور

إن جميع القرائن تؤكد أن الزجل قد جاء مُتأخراً، بعض الوقت عن فن التوشيح، أو الموشحات، فهو يندرج تحت لواء المرحلة الثالثة لتحول الشعر في بلاد الأندلس، فالمرحلة الأولى-وفق منظور الباحث مصطفى الشكعة-هي مرحلة الفصيح الذي استمر، وسوف يستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، والمرحلة الثانية هي مرحلة إدخال العامية إلى الشعر مع تحوير في بناء القصيدة، وتعدد الأوزان والقوافي، فقد أُدخلت العامية من خلال الخرجة في الموشحات، والمرحلة الثالثة هي مرحلة قول منظومات عامية تلتقي مع رغبات العامة، ومن لا يُجيدون العربية من أبناء البلاد، وملوك البربر، وقد عُرفت هذه المنظومات العامية باسم الزجل [8]

والجدير بالذكر أن النقاد العرب القدماء، قسموا الشعر العربي إلى سبعة أنواع، هي : « الشّعرُ القريضُ، والمُوشّحُ، والدوُّبيت، والزّجل، والمواليّا، والكانْ وكانْ، والقوما قوما ، ومنهم من جعل الحُمّاق من السبعة، وفي ذلك اختلاف، وعند جميع المحققين أنّ هذه الفنون السبعة، منها ثلاثة معربة أبدًا لا يُغتَفرُ اللّحن فيها، وهي الشعر القريض، والموشّح، والدُّوبيت، ومنها ثلاثة ملحونة أبدًا، وهي : الزّجل، والكان وكان، والقوما، ومنها واحدٌ، وهو البرزخ بينهما، يحتمل الإعراب واللّحن، وهو المواليا، وقيل : لا يكون البيت منه بعض ألفاظه معربة، وبعضها ملحونة، فإنّ هذا من أقبح العيوب التي لا تجوز، وإنّما يكون المعرّبُ منه نوعًا بمفرده، و يكـــــون الملحون فيه ملحونًا لا يدخله الإعراب» [9]

فما نفهمه من هذا النص الذي أورده الأبشيهي أن الزجل، يعد نوعاً من أنواع الشعر العربي، وإن كان مكتوباً بلغة غير فصيحة، لغة الحديث اليومي بين عامة الناس، وقد وضح صفي الدين الحلي قاعدة هذه الفنون الشعرية في كتابه:«العاطل

الحالي والمرخص الغالي» ، ورأى : أنّ أهل العراق، وديار بكر، ومن يليهم يثبتون الخمسة منها، ويبدّلون الزجل ،والحمّاق بالحجازي، والقوما، وهما فنان، اخترعهما البغاددة للغناء بهما، في سحور شهر رمضان خاصة في عصر الخلفاء العباسيين،وعذرهم في إسقاط الزجل، هو أن أكثرهم لا يفرّقُ بين الموشح، والزجل، والمُزَّم ، فاخترعوا عوضه الحجازي ، كما اقتطع الواسطيّون الموالياّ، وهذا يشبه الزجل في كونه ملحونًا، وأنّه يعد كل أربعة أقفال بيت، ويخالفه بكون القطعة منه لو بلغ عدد أبياتها ما بلغ لا تكون إلا على قافية واحدة،وعذرهم في إسقاط الحمّاق، هو أنّهم لم يسمعوه أبدًا، فعوّضوا عنه بالقوما، وإذا أضفنا الفَنين اللذين أوردهما صفي الدين الحلي لأهل العراق، وهما الحجازي والقوما، ثم الثالث وهو المُزَّم، والبليق ، الذي عرفه المصريون، وبعض الشوام، كان عددها أحد عشر فنًا منظومًا، وقد اقتبس بعضها من الشعر الأندلسي المغربي، كالموشجات، والأزجال، واقتبس بعضها الآخر من بغداد ، وفارس كالدوبيت ،والمواليّا [10]

وإذا كان مؤرخو الأدب الأندلسي، لم يذكروا من قريب،أو بعيد من اخترع فن الزجل،إلا أنهم أشاروا إلى أول من أبدع القول فيه،وقد نبه عدد من المؤرخين إلى أن الأزجال التي قيلت قبل أبي بكر بن قزمان،لم تظهر حُلاها،ولم تنسكب معانيها،ولم تشتهر إلا في زمانه-أي زمان ابن قزمان-.

ومن بين النصوص التي تشير إلى الجانب التاريخي في نشأة الزجل،نص أورده العلاّمة عبد الرحمن بن خلدون،جاء فيه:«أول من أبدع في هذه الطريقة الزجلية أبو بكر بن قزمان.وإن كانت قيلت قبله بالأندلس،ولكن لم تظهر حُلاها،وانسكبت معانيها،واشتهرت رشاقتها،إلا في زمانه،وكان لعهد الملثمين.وهو إمام الزجالين على الإطلاق.قال ابن سعيد: (ورأيت أزجاله مرويةً ببغداد،أكثر مما رأيتها بحواضر المغرب.قال:وسمعتُ أبا الحسن بن جُنحدر الإشبيلي، إمام الزجالين في عصرنا يقول:ما وقع لأحد من أئمة هذا الشأن مثل ما وقع لابن قزمان شيخ الصناعة)»[11]

فما يُستنتج من مختلف الأخبار أن أبا بكر بن قزمان المتوفى سنة:554هـ ،والذي عاش في ظل حكم المرابطين بالأندلس،هو أول من أبدع في فن الزجل،ولم تُعرف الأزجال التي قيلت قبله،وربما قد يكون أخذ منها،أو اقتبس،أو استفاد.

حيث يذكر ابن قزمان لدى تقديمه ديوانه :« ولقد كنت أرى الناس يلهجـــون بالمتقدمين،ويُعظمون أولئك المقدمين،ويجعلونهم في السماك الأعزل،ويرون لهم المرتـبة

العليا، والمقدار الأجزل، وهم لا يغرفون الطريق، ويذرون القبلة، ويمشون في التغـــريب، والتشريق، يأتون بمعانٍ باردة، وأغراض شاردة، وألفاظ شياطينها غيرماردة، وبالإعراب، وهو أقبح ما يكون في الزجل، وأثقلُ من إقبال الأجل...» [12]

إن مـا يتضـح هـو أن هنـاك مـن سـبقوا ابـن قزمان، وحـاولوا الإبـداع في فـن الزجـل، والأمر الـذي يـرجح، أنهـم كانـت لهـم قصـائد شـعبية، بيد أنهـم لم يبلغـوا مبلغـه، ولم يصـلوا إلى مسـتواه الفني، ويُمكـن القـول إن الزجـل الـذي نشـأ في الأندلس، قد انقسم إلى قسمين رئيسين:زجل العامة، وزجل الشعراء المعربين.

بالنسبة إلى زجل العامة، أو شعر العامة، فهو يتجلى في الأغنية الشعبية العامية، والتي تنبع تلقائياً لدى العامة بباعث تجربة شخصية، أو من وحي واقعة معينة، أو حدث عام، أو موقف مُعين، ثم تنتشر تدريجياً على ألسنة الناس، فيتغنون بها فرادى، وجماعات..

أما زجل الشعراء المعربين، فيبدو أنه قد جاء تابعاً في النشأة لزجل العامة، ويبدو أن الشعراء الذين حاولوا هذا النوع من الزجل قبل عصر ابن قزمان، كانوا مدفوعين إليه، رغبة منهم في أن تنتشر أزجالهم المصطنعة بين الطبقات المثقفة كنوع من الطرافة، أو رغبة في أن يُعرفوا لدى العامة معرفتهم لدى الخاصة، ولعل دوافعه لدى بعض الشعراء المعربين أنهم وجدوا أنفسهم لايقعون مع فحول الشعراء المعاصرين لهم في شيء، فسلكوا سبيل الزجل ليتميزوا بينهم، بيد أن أولئك الشعراء الذين اصطنعوا الزجل اصطناعاً، لم يستطيعوا في مراحله الأولى أن يتخلصوا فيه من الإعراب، وهذا ما عابه عليهم ابن قزمان، حين قال: إنهم يأتون بالإعراب، وهو أقبح ما يكون في الزجل، ولم يشهد ابن قزمان لأحد من الزجالين الذين كانوا قبله بأنه كان مُجيداً لفن الزجل، ومتفوقاً فيه، باستثناء الشيخ أخطل بن نُمارة، الذي تميز بسلاسة طبعه، وإشراق معانيه، وتصرفه بأقسام الزجل، وقوافيه.

ويظهر أن الرعيل الأول من الزجالين الذين جاؤوا قبل ابن قزمان، وسمّاهم في مقدمة ديوانه ب(المتقدمين)قد ظهروا خلال القرن الخامس، ويبدو أنهم لم يجدوا العناية الكافية، فملوك ذلك الزمان لم يكونوا مهتمين بالأدب العامي، أو الشعبي كونه يُمثل انحطاطاً في المستوى.[13]

مر الزجل بتطورات مختلفة، يقسمها عدد غير قليل من المؤرخين لهذا الفن، إلى خمسة أدوار رئيسة:ففي الدور الأول ارتبطت نشأة الزجل بالأغاني الشعبية العامية التي تروج في بيئة معينة، ولا تُنسب إلى مؤلف بعينه، وقد شاعت تلك الأغاني الشعبية

على ألسنة الناس منذ أواخر القرن الثالث،وفي الدور الثاني،ظهرت جماعة من الشعراء اصطنعت الزجل،وقد سمّاهم ابن قزمان في مقدمة ديوانه(المتقدمين)،واتهمهم بالتقصير في نصه الذي أوردناه سلفاً،وفي الدور الثالث،ظهر عدد من زجالي القرن السادس الهجري،أبرزهم ابن قزمان الذي ذكره ابن خلدون في مقدمته،وهو يعد إمام الزجالين على الإطلاق.

وفي الدور الرابع يُطل مدغليس،فنلفيه يجمع في أزجاله بين القصائد الزجلية،والأزجال الحرة المطلقة من إسار الشكل التقليدي،وقد ذكره المقري في كتابه:«نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب»،بقوله:«كان مدغليس هذا مشهوراً بالانطباع والصنعة في الأزجال،خليفة ابن قزمان في زمانه،وفيه يقول أهل الأندلس:ابن قزمان في الزجالين بمنزلة المتنبي في الشعراء،ومدغليس بمنزلة أبي تمام،بالنظر إلى الانطباع ،والصناعة،فابن قزمان ملتفت إلى المعنى،ومدغليس ملتفت إلى اللفظ،وكان أديباً معرباً لكلامه مثل ابن قزمان،ولكنه لما رأى نفسه في الزجل اقتصر عليه»[14]

وفي هذا الدور الرابع،ظهر عدد من الزجالين مثل: ابن الزيات،بيد أن الذين ظهروا لم يُرزقوا موهبة فنية كابن قزمان،أو مدغليس،ولعل ذلك يعود إلى الظروف الصعبة التي كانت تمر بها الأندلس،فهي التي كانت السبب،حيث كانت الحرب طاحنة،وهجومات النصارى مكثفة على المسلمين،فبوادر مأساة الأندلس الكُبرى كانت تلوح في الأفق،حيث بدأت المدن الأندلسية تتساقط في أيدي الإسبان،تساقط أوراق الأشجار في الخريف،فشُغل الناس بهذا الخطر الداهم عن كل شيء آخر.

ومع نهاية هذا الدور في القرن السابع الهجري الذي اشتدت فيه مأساة الأندلس،ازدهرت الموشحة الصوفية على أيدي ابن عربي،الذي حمله معه إلى الشرق العربي،وابن سبعين،وتلميذه المعروف بأبي الحسن الششتري،ولاشك في أن ميلاد التصوف يكون من رحم المآسي ،والنكبات التي تُصيب الأمة،فقد أخذت جماعات الصوفية تمشي في الأسواق،وتتغنى بأزجال الششتري،وغيره من شعراء الصوفية.

أما الدور الخامس والأخير في تطور الزجل الأندلسي،فقد كان في مرحلة المائة الثامنة،ولعل أبرز الزجالين الذين ذكرهم ابن خلدون في مقدمته:الوزير لسان الدين بن الخطيب،فقد شهد له بأنه إمام النظم والنثر،وقد أورد من أزجاله المتميزة،ثلاث مقطوعات قصيرة،وذكر كذلك معاصره محمد بن عبد العظيم،وهو من أهل وادي آش،وقد كان إماماً في هذه الطريقة الزجلية في ذلك العهد،كما ذكر كذلك من

الذين أبدعوا في الزجل أحد الشيوخ عُرف بأبي عبد اللّٰه اللوشي،وأورد له قصيدة زجلية طويلة.

فتطور الزجل في البلاد الأندلسية، بصورة عامة، مرّ بخمسة أدوار متميزة،هي:دور الأغنية الشعبية،ودور الزجّالين قبل ابن قُزمان،ودور زجالي القرن السادس،وفي مقدمتهم ابن قزمان،ثم دور شعراء الزجل في القرن السابع،وفي طليعتهم مدغليس،ثم يجيء دور شعراء الزجل في القرن الثامن،وفي مقدمتهم لسان الدين بن الخطيب،ولا ريب في أن الزجل وُلد في أحضان الأغنية الشعبية،وهو نتيجة لانحطاط المستوى،وليس نتيجة للازدهار،وعلو المستوى،والصلة بين مختلف مراحل تطور الزجل تتراوح بين مد ، وجزر [15]

إن النتائج التي نخرج بها بعد أن نقرأ كلام ابن خلدون الذي دعمه بكلام ابن سعيد هي:

1-إن ابن قزمان لم يكن سباقاً في طرق الزجل،فقد سبقه عدد غير قليل من الزجالين.

2-إن الزجل تأثر بالموشح،وقد جاء انحداراً في المستوى إلى لغة العامة.

3-إن إمام الزجالين،وشيخ الصناعة في فن الزجل هو ابن قزمان،لأنه أول من ذاعت أزجاله، واشتهرت ،فقد عُرفت أزجاله،وذاعت في سائر البلاد العربية،إلى درجة أن ابن سعيد يُشير إلى أن أزجال ابن قُزمان رُويت ببغداد،أكثر مما رُويت في حواضر المغرب،وقد كان محيي الدين بن عربي،أول من استخدم الزجل في نظم الأوراد،والأناشيد الصوفية،ومن يطلع على الشعر العبري في زمن ابن عربي يجد فيه نوعاً ينظم على نهج الزجل العربي.

4-لقد ازدهر الزجل أيما ازدهار إبان زمن حُكم المرابطين،وهذا الازدهار يُقدم لنا جُملة من الدلالات، أشرنا إليها سابقاً،ولعل أبرزها أنه دليل واضح على انهيار مستوى الأدب العربي،ويُقدم صورة على الانحطاط في مستوى الشعر العربي،فحُكام البربر لا يفهمون اللغة العربية،لذلك راح الشعراء يُخاطبونهم باللغة العامية، من أجل فهم مقاصدهم،وتقديم الهدايا والعطايا.

5-إن أزجال ابن قُزمان كانت معروفة لدى المشارقة،وقد قادت هذه الفكرة بعض الباحثين إلى أن المشارقة كانوا على معرفة بالزجل قبل ابن قزمان [16].

ومن الأمور التي تلفت النظر،بالنسبة إلى الرؤى النقدية، التي قُدمت عن الزجل،والكتب التي درست هذا الفن،أن الزجل يلتقي مع الموشحات،في أن العلماء

الذين شرحوا فن التوشيح، والزجل، هم من غير البلاد الأندلسية، فابن سناء الملك هو الذي فسر قوانين التوشيح في كتابه:«دار الطراز في عمل الموشحات»، والعلاّمة الشيخ صفي الدين الحلي هو الذي فسر كيان الأزجال، وتاريخها في كتابه:«العاطل الحالي والمرخص الغالي» ،أما أهل الأندلس،فلم يصل أي شيء من تحليلهم للأزجال ووصفها، وتاريخها، وطريقة نظمها، ومما جاء في مقدمة كتاب:«العاطل الحالي والمرخص الغالي»للعلاّمة صفي الدين الحلي،بتحقيق الباحث حسين نصار،لدى حديثه (صفي الدين الحلي) عن دوافع تأليفه للكتاب، وقضايا أخرى تتصل بالفنون التي عالجها فيه:«...فإني كنت أضفت إلى ديوان أشعاري فنّي الموشح، والدوبيت،لتحليتهما بالإعراب،ونسجهما على منوال الأعراب،وأعريتُه من الفنون الأربعة التي لحنها إعرابُها، وخطأُ نحوها صَوابُها، ووعدت في خطبته أن أجعلها جزءاً بمفرده خارجاً عما كنت بصدده، وهي:الزّجل، والمواليا، والكان وكان، والقُوما.

فهي الفنون التي إعرابُها لحن،وفصاحتها لكن،وقوةُ لفظها وهن،حلالُ الإعراب بها حرام،وصحة اللفظ بها سَقام،يتجدد حسنها إذا زادت خلاعة،وتضعُف صنعتها إذا أودعت من النحو صناعة.فهي السهل الممتنع،والأدنى المرتفع.طالما أعيت بها العوام الخواص،وأصبح سهلها على البلغاء يعتاص.فإن كلّف البليغُ منها فنا تراه يُريغه،(أي يراوده ويطلبه على جهد ومشقة)،ولا يتجرعه ولا يكاد يسيغه،فمعرفتها بالطبع السليم،وآفتها من الفهم السقيم،ولاسيما فن الزّجل الذي تختلف أوزانه،ويضطرب ميزانه،ويتغايرُ لزُومه،ويشتبه منظومه.

وهذه الفنون تختلف بحسب اختلاف بلاد مخترعيها،وتفاوت اصطلاح مبتدعيها:فمنها ما يكون له وزن واحد،وقافية واحدة،وهو الكان وكان،ومنها ما يكون له وزن واحد وأربع قواف،وهو المواليا،ومنها ما يكون له وزنان وثلاث قواف،وهو القُوما،ومنها ما يكون له عدة أوزان،وعدة قواف،وهو الزّجل»[17].

ثالثاً:أنواع الزجل

لقد تم تقسيم الزجل إلى أربعة أقسام رئيسة،يفرق بينها بمضمونها المفهوم،لا بالأوزان واللزوم.فلقبوا ما تضمن الغزل، والنسيب، والخمري، والزهري:زجلاً،وما تضمن الهزل، والخلاعة، و(الإحماض):بلّيقا،وما تضمن الهجاء، والثلب:قرقيا، وما تضمن المواعظ ،والحكمة:مكَفّرا،ولقبه مشتق من تكفير الذنوب»[18].

فالزجل حسب قول صفي الدين الحلي،ينقسم إلى خمسة أقسام،هي :

1- الزجل: وهو ما تضمن الغزل، والنسيب، والخمري، والزهري.

2- البُليق : وهو ماتضمن الهزل، والخلاعة، والإحماض.

3- القرقي: وهو ما تضمن الهجاء والثلب.

4- المُكفر : وهو ما تضمن المواعظ والحكمة، ولقبه مشتق من تكفير الذنوب ،وتجدر الإشارة إلى أن المكفرات نوع من القصائد، يريد بها الشاعر التكفير عما أنشأه في زمان شبابه، ولهوه من أشعار مجونية، وينظمها على أوزانها وقوافيها ،فهو يرغب من خلالها أن يُكفر الذنوب التي اقترفها في أيام شبابه، وأول من نحا هذا النحو على ما يبدو هو أحمد بن عبد ربه صاحب كتاب: «العقد الفريد»، سمى قصائده التي نظمها بغرض تكفير الذنوب :«الممحصات»، أي التي تغسل القصائد الماجنة، و تمحو آثارها، وتكون كالتوبة، والاستغفار منها. ثم سار على أثره بعض شعراء الموشحات، وعدلوا إلى تسمية هذا النوع من موشحاتهم المكفرات. وتوسعوا فيها حتى كفر بعضهم عن بعض، مع اشتراط أن يذكر المكفر مطلع الموشحة اللاهية في خرجته الأخيرة.

وقد أشار صفي الدين الحلي إلى هذا النوع لدى حديثه عن الزجل، فقال:«وكان الأصل في المكفر أن الأديب منهم، إذا نظم موشحاً في آخره خرجة زجلية تتضمن الزجل والإحماض، نظم بعدها موشحاً مُعرباً في وزنه وقافيته، يتضمن الاستغفار، والوعظ، والحكمة، ليُكفر الله تعالى به عنه ذنب ذلك الإحماض في تلك الخرجة.ولقبه(مُكفراً) بكسر الفاء، لأنه اسم فاعل، وربما عطف آخر بيت منه على مطلع ذلك الموشح، أو خرجته الزجلية.وهذا شرطه»[19].

إن أشهر الفنون العامية هو الزجل، وقد اتفق الدارسون على أن أهل الأندلس هم الذين اخترعوه، وقيل سموه بالزجل كونه لا يلتذ به، ويفهم تنغيمه، حتى يغنى به، ويصوت، وقد ذاع هذا الاسم بين الناس، على الرغم من أن أهل بغداد سموا هذا الفن بالحجازي، وهو يتميز بأنه يمنح ناظمه كثيراً من الحرية، ويُقيده بصورة محددة، حيث إن أوزانه متجددة، وقوافيه متعددة، بخلاف بقية فنون الشعر الشعبي.

وقد تم تصنيفه من قبل الدارسين إلى نوعين:النوع الطبيعي الذي يستخدم اللغة العامية استخداماً مُطلقاً، وهو النوع المعتاد، والنوع الذي يجمع بين اللغة العربية الفصيحة، واللغة الدارجة، وقد احتقر أهل الزجل هذا النوع [20]

وما يظهر لمن يطلع على عدد كبير من أوزان الزجل، في زمننا هذا أنها تقوم على نظام المقاطع الصوتية، وأوزانه عند بعض الباحثين ستة عشر وزناً.

وبالنسبة إلى القافية، فقد تفنن الزجالون في الأندلس بتنويعها، وتغييرها، و أكثر

الزجل يرجع إلى الأنواع الآتية:

1-نوع يتألف من أربعة أشطر، تتجدد فيه القافية في الشطر الأول، والثاني والرابع، ويمكن تمثيله بالمخطط التالي:

ـــــ أ　　ـــــ ب

ـــــ ب　　ـــــ أ

2-نوع يتكون من أربعة أشطر يتحد فيه الشطر الأول، والشطر الثالث في القافية. ويتحدد الشطر الثاني والرابع في قافية أخرى، ويمكن تمثيله بالمخطط التالي:

ـــــ أ　　ـــــ ب

ـــــ أ　　ـــــ ب

3-نوع يتألف من أربعة أشطر تتحد فيه القافية في الأشطر جميعاً، وغالباً ما يكون ذلك في أوائل القصائد، وهو يأتي وفق هذا المخطط:

ـــــ أ　　ـــــ أ

ـــــ أ　　ـــــ أ

4-نوع يتألف من أربعة أشطر، وتتحد فيه القافية في الأشطر الثلاثة الأولى، وتعود قافية الشطر الرابع إلى قافية اللاّزمة. وهذا النوع هو الأكثر شيوعاً، كما يتجلى هذا في «العتابا»، و«الميجانا»، و«الأبوذية»، وغيرها، ويمكننا أن نمثله بهذا المخطط:

ـــــ أ　　ـــــ أ

ـــــ أ　　ـــــ ب

وللزجل جملة من الفنون، قد تختلف من منطقة إلى أخرى باختلاف المناطق العربية [21]

وقد ذكر كثير من المتتبعين أنه لا حد لبحور الزجل، ولا حصر لها، حتى قيل: « صاحبُ ألْف وزن ليّس بزجال »، والملاحظ أن بعض الزجالين لم يخضعوا لنظام بحور الشعر العربي، فتلاعبوا بالتفعيلات من حذف، وزيادة، ومزج بين أكثر من وزن واحد في القصيدة الواحدة، ومع ذلك فمن المؤكد أنهم خضعوا لإيقاع العروض العربي، وليس إلى أوزانه وتفعيلاته، وعلى العموم لا تكاد أوزان الأزجال «تزيد على الأوزان المعهودة في الشعر العربي إن لم تقل عنها».

وفق منظور الباحث عباس الجراري، فالقول عن بحور الزجل إنها غير محدودة، هو قول لا يخلو من مبالغة، وتهويل، وتعجيز. فالحقيقة أن الزجالين سواء في الأندلس، أو المغرب، أو في المشرق، قد نظموا أوزانهم على أوزان لا نجد لها مثيلاً في العروض العربي الذي حدده العلاّمة الخليل بن أحمد الفراهيدي، والحقيقة أننا نجد في

الزجلة مزجاً بين أكثر من وزن،وهي ظاهرة تظهر معها بحور الزجل كثيرة،وجديدة،وبعيدة عن العروض العربي،ولكن مع هذا لا توجد لا نهائية لتلك البحور،والذوق العربي يستسيغ موسيقى الزجل،ويطرب لها،وأما أن أوزان الزجل محدودة في نطاق العروض العربي،إلى درجة إمكان تطبيق تفعيلات الخليل عليه،فهذا القول يجانب الصواب، بسبب أن الذين يذهبون إليه يغفلون أمراً،يعد من أهم عناصر هذا الشعر،ألا وهو موسيقيته، التي لا تتيح مثل ذلك التطبيق،بل إنها تتكسر ،وتضيع محاولاته،و لايخفى كذلك أن في تفعيلات الخليل،وما نشأ عنها جملة من الجوانب الصناعية،بسبب الأسباب ،والأوتاد، وما تتعرض له من علل وزحافات،وقد بلغ هذا الجانب عند الفراهيدي-وهو جانب تأثر فيه بعلم الصرف ومقاييسه-.

لذلك،فإنه ليس من السهل القول إن الزجل« يسير على التفعيلات العربية،أو بالأحرى إنه يسير عليها في تناسقها المعروف،ومع ذلك فمن المؤكد خضوعه لإيقاع العروض العربي،وليس إلى أوزانه وتفعيلاته،فأوزانه تختلف،وتفعيلاته تتباين في العدد ،والمقدار،وهذا ما يجعل من الصعب،بل من المستحيل،أن نزعم أن هذه القصيدة، أو تلك من بحر الكامل،أو الوافر،أو غيرهما.ولو هيء للأوزان المجزأة من يُحصيها ويدرسها ،وينظمها، لأمكن إرجاع بعض قصائد الزجل إلى أنماط من هذه الأوزان.

ويزيد في خطأ الرأي الذي يذهب إلى أن أوزان الزجل محدودة، أن اتخاذ مثل هذا الرأي يقتضي بادئ ذي بدء حصر كل النصوص الزجلية،إذ إن عملية تحديد الأوزان لا يُمكن أن تتم إلا بعد جمع هذه النصوص ،واستقراء ما تسير عليه من بحور.وما دامت هذه العملية غير ممكنة،طالما أن ما بين أيدينا من نصوص لا يمثل إلا نسبة ضئيلة مما أنتجه الزجالون،فمن العبث والخطأ أن نسطر أحكاماً مسبقة،ونُحاول إخضاع الأزجال لها،وإنما العكس هو الصحيح والصواب» [22]

ومن بين الأوزان التي أشار إليها الباحث إبراهيم أنيس:

1-الرمل التام:وهو واحد من الأزجال التي شاعت في الزجل منذ بداياته،وعندما يُذكر الرمل التام،أي ذلك الوزن الأصلي للرمل،والذي يجيء على:

فاعلاتن + فاعلاتن + فاعلن

حيث إن هذا الوزن شاع،وأحدثت عليه بعض التغييرات،حيث لحقته زيادة في آخر الشطر،وأحياناً تكون الزيادة عبارة عن حرف ساكن،أي إن الوزن يصير:

فاعلاتن+فاعلاتن+فاعلان

وفي بعض الأحيان تكون الزيادة عبارة عن مقطع،فيصير الوزن:

فاعلاتن+فاعلاتن+فاعلاتن

وهذه الزيادة تُضاف بغرض الانسجام مع لهجة الكلام، التي تمكن آخر الكلمات، وتتحلل من إعرابها.

والوزن الثاني هو بحر البسيط، الذي يكاد يكون مقصوراً على المواويل، ويجيء في الأزجال على نوعين: نوع اعترف به أهل العروض في أواخر الأبيات، ونوع آخر هو ما ينتهي شطره بوزن فاعل بدلاً من فاعلن، أما الثاني فالشطر ينتهي فيه بوزن مفعول بدلاً من فاعل، وقد يكون وزن الشطر من الزجل عبارة عن نصف شطر من بحر البسيط، أي مستفعلن فاعلن فقط، بيد أن التفعيلة الأخيرة يلحقها دائماً زيادة ففعلن، تصير إما فاعلان، أو فاعلاتن.

ومن بين الأوزان التي أشار إليها الباحث إبراهيم أنيس ما يُمكن تسميته بالمتدارك التام، والمُلاحظ أن تفعيلة المتدارك فاعلن، تأتي غالباً في الزجل على إحدى صورتين فعلن، و فعْلن [23]

إن أنواع الزجل، وأوزانه متعددة ومتنوعة- كما سبق ذكره-، ومنها النوع الذي يلتزم بالأوزان الخليلية المعروفة، ويسير على نهجها، و يتفق مع القصائد المعربة في التزام الوزن الواحد، والقافية الواحدة، بيد أنه يختلف عنها بأنه مكتوب بلغة غير فصيحة، وقد أورد منه صفي الدين الحلي. ثلاث عشرة قصيدة للشيخ أبي عبد الله مدغليس نقلها من ديوانه، فمن ذلك قوله في قصيدة من (بحر المديد) مطلعها:

مَضَى عَني مَنْ نحبو وَوَدَعْ ولَهيبَ الشوقْ في قلْبي قدَ أوْدعْ [24]

وله قصيدة أخرى على (بحر الرمل) مطلعها:

الْهَوَى حَملْنِي مالا يُحْتَملْ تُرِدِ الحق: لسْ لِمنْ يَهْوى عَقَلْ [25]

وله قصيدة أخرى في (بحر الخفيف)، مطلعها:

لقدْ اقبلْتَ يا نَسيمَ السحَرْ بِرَوَائِحْ قَدْ بَورَتْ لِلْمُسوكْ [26]

وهناك نوع آخر يُكتب على طريقة عروض الموشحات، مع اختلاف يسير، إذ إنه يتميز بوجود مطلع أو مذهب، وهو يتكون عادة من أربعة أغصان، و«دور»، وكل دور ينتهي عادة من أربعة أغصان، و«دور»، وكل دور ينتهي بقفل ينقسم إلى غصنين اثنين، وتكون قافية القفل متحدة مع قافية المطلع. أما الأدوار فإن لكل واحدة منها قافيته الخاصة، ويتكون الدور عادة من ثلاث قسيمات مركبة، تكون أحيانا قسيمات بسيطة، وأحيانا قسيمات مركبة، وفي هذه الحالة الأخيرة، يكون الدور

مكونا من ستة أسماط، ووحدة القافية أمر أساسي في الدور إذا كان بسيطا، وفي أعجاز المصراعات إذا كان مركبا، وينتهي الزجل عادة من بحر، وقافية المطلع والأقفال. هذا وفي القليل النادر تكون الأقفال ،أو الخرجة مكونة من أربعة أغصان مثل المطلع، وهناك من الزجالين لم يراعوا هذه القاعدة، واكتفوا بالأقفال، والخرجة البسيطة [27]

ومن هذا النوع من الزجل المنظوم على نمط الموشحات ،ما أنشأه (أبو علي الدباغ) في هجاء طبيب، حين قال:

إن ريتْ من عَداك يشتكي من تلطيخْ
وتريد أنْ يُقبـر احمِلُ للمريـخْ
قد حلف ملك الموت بجميع أيمانُ
ألا يبرح ساعهْ من جوارْ دكانُ
ويـريح روحُ ويعظم شـانُ
وفساد النيا تحت ذاك التوبيخ
بقياس الفاسد وبدينُ الحمروجْ
يَخُذِ الصفراوي ويرد مفلوجْ
للصحيح لْس يسمح بمريقة فروجْ
ويحيل المحموم على أكل البطيخْ
وغَنِـى إن طَب فيرد يسْعى
والمنى يطلق في مُرُوجُ تُرعَى
يسقي ما يسقيه يحتبسْ في الأمعا
احتباس أيـدي العارْ بحبال التوبيخْ [28]

رابعاً :نماذج تطبيقية :

إن الزجل يتكون من أقفال وأبيات شأنه شأن الموشح، حيث الشبه كبير بين أجزاء الموشح، وأجزاء الزجل، ولا سيما في الشكل الخارجي، وفي الأوزان، ونظم القوافي، ويمكن أن نوضح أجزاء الزجل من خلال هذا النموذج لعلي بن مقاتل:

يا مليح الشباب يا حلو الشمايل إن عينيك تعمل في قلبي عمايل

***

فيها فترة يخطر لمن بيها يجهل
إنها سهلة والمنون منها أسهلْ

وأرباب الفضل والتشابيه يا شهلْ
قالوا عينيك نرجس وصدغك حمايلْ صبتها أسياف معقربات الحمايلْ
***

من ذا يحمل جور العوينات بتاعكْ
انت سلطانْ على المعاشِق وماعكْ
رمح قامه بلينها اشتد باعكْ
وحواجب قسى على جفن نابلْ سهمها أنفذ في القلب من سحر بابلْ
***

قال لي انسان هذا الذي تثني عنو
وتقول في مدبحك اتُّو واتُّو
ما رايت في الملاح مليحْ احلا متُّو
قلت لُولا فتشْ وقايس وقابل وعلى هينتك هذا العام وقابلْ
***

راح عذولى كما وصيتو وجانى
وقال إلا محبوبك ابن الفلانى
قلت هُو هُو ومن يعشقو بلانى
قال لي ذاك الذي أليق قدّو ماثل عند صحب العقول وليس لُو مماثلْ
***

موطا خلقوا مليح وما أعلا قدرو
وما أترف صدرو المبرز في خدّو
قَلّ قلبى واش وصلك إلى صدرو
قلت نهديه ممزقات الغلايلْ هي المدلّهْ وكل شيء لُو دلايلْ
***

قالوا خشفك عن مرتعك أمسى نافرْ
واش قد زاد نفره عليك وانت صابرْ
قلت يا من أتاني عاذل وعاذرْ
المحب الصدوق إذا كان مفاصلْ يحتج أن يصبر إلى أن يواصلْ[29]
***

فهذا الزجل يتكون من سبعة أقفال متحدة مع بعضها في التقفية، وستة أبيات مختلفة في التقفية، وهو زجل تام، و يعد من أبسط صور بناء الزجل، وينقسم إلى أجزاء هي:

1-المطلع:وهو القفل الأول في الزجل، وهو في الزجل الذي كتبه علي بن مقاتل:

يا مليح الشباب يا حلو الشمايل إن عينيك تعمل في قلبي عمايل

وقد يوجد زجل أقرع، والمطلع قد يكون متفقاً مع بقية الأقفال في عدد الأجزاء، وقد يختلف، فقد تأتي صور المطالع المتفقة مع الأقفال كالتالي:

ـــــ أ ـــــــ ب

ـــــ أ ـــــــ ب

فالمطلع يتفق في التقفية الخارجية، ويختلف في التقفية الداخلية، وقد تأتي التقفية الداخلية كالخارجية، وهذا قليل نادر جداً.

ـــــ أ ـــــــ أ

2-القفل:ففي الزجل لا يُشترط أن تتفق الأقفال في عدد الأجزاء، فقد يأتي القفل الأول(المطلع)، مكوناً من أربعة أجزاء، وبقية الأقفال، والخرجة مثله، أو يأتي المطلع مكوناً من جزأين، وكذلك الشأن بالنسبة إلى الأقفال والخرجة، ونادراً ما يأتي المطلع مكوناً من أربعة أجزاء، والأقفال والخرجة مكونة من جزأين، والأقفال والخرجة مكونة من جزء واحد.

والقفل في هذا الزجل هو:

قالوا عينيك نرجس وصدغك حمايلْ صبتها أسياف معقربات الحمايلْ

فالقفل يتكون من جزأين يتفقان في التقفية الداخلية ، والخارجية.

3-البيت:إن الأبيات تأتي في الأزجال مفردة ، أو مركبة، ويُشترط فيها أن تتفق مع بقية أبيات الزجل، ويُفضل في الأبيات أن تختلف في التقفية، والبيت في زجل علي بن مقاتل:

فيها فترة يخطر لمن بيها يجهل

إنها سهلة والمنون منها أسهلْ

وأرباب الفضل والتشابيه يا شهلْ[30]

4-الخرجة: إن خرجات الأزجال عادة تتسم بالبساطة، والسطحية، حيث إنها تشبه حديثاً عادياً يومياً، فهي تختلف عن خرجات الموشحات، وتأتي الخرجات على شكل واحد(الخرجات العامية)، وقد أخذ الوشاحون بعض خرجات الزجل، وقاموا ببناء موشحاتهم عليها، ويظهر لمن يطلع على خرجات الموشحات، ويُقارنها مع خرجات الأزجال، أنها تشترك في العامية، غير أن خرجات الأزجال، نجد فيها بعض الأمثال

الشائعة بين الناس [31] ،وقد يقتبس الزجال الخرجة من زجل آخر، كما فعل علي بن مقاتل، فقد اقتبس مطلعه من قول أبي بكر بن حجة:

يا مليح الشباب يا حلو الشمايل إن عينيك تعمل في قلبي عمايل

وقد طرق الزجالون أغراضا شعرية متنوعة، وهي الأغراض المعهودة التي يطرقها الشعراء، كالمدح، والوصف، والفخر، والزهد، والهجاء، والرثاء، وغيرها.

ويبدو أن الزجل كان في أول نشأته، حكراً على الغزل، واللهو، والمجون، ثم اتسعت موضوعاته، وتنوعت، فشملت مجموعة من الأغراض التقليدية ،حيث نجد بعض الشعراء العاميين ،يبرعون في غرض التصوف، والزهد.

وقد أسهم الشعر العامي، إلى جانب الشعر الفصيح في غرض المجون، وقد تحدث شعراء الزجل في أزجالهم، بشكل واضح عن تهتكهم، وعربدتهم، وانهماكهم في البطالة، وتصيدهم للملذات كيفما اتفق، وأشاروا بوضوح إلى ازدرائهم للقيم الدينية، والأخلاقية السائدة، حتى أنهم أفردوا للزجل الهازل، والماجن اسماً خاصاً هو: «البلّيق» ،الذي هو مشتق من البلق بمعنى الحُمق غير الشديد، كما ذهب إلى ذلك صفي الدين الحلي في كتابه: «العاطل الحالي والمرخص الغالي» ،في تنظيره لأصناف الزجل، وحديثه عن أوزانه، وقد أوردنا منظوره هذا سلفاً.

لقد عرض الشعراء في أزجالهم لمعظم معاني المجون، سواء تلك التي تتعلق بالانهماك في الملذات الحسية، والتعاطي للمحرمات، أو التي تتصل بالسخرية، والاستخفاف بالشعائر الدينية، والقيم الأسرية، فمن المعاني التي تتردد لديهم التصريح باتخاذ اللذة، والمتعة هدفاً، وديدناً لهم في الحياة، ودفاعهم واحتجاجهم لمذهبهم هذا[32].

يقول ابن قزمان:

نفني عمري فالخنكرة والمجون
يا بياض خليع بديت أن نكُون
إنما أن نتوب أنا فمُحال
وبقائي بلا شريبة ضلال
بين، بين، ودعني مما يقال
إن ترك الخلاعة عندي جنو[33].

كما يتحدى ابن قزمان الأعراف ،والقيم الاجتماعية تحدياً سافراً، فيوضح سُبل الخلاعة التي يجب أن تُصرف فيها الأموال، حيث يقول:

خذ مالي وبددوه في شراب
وثيابي ففصلوا لل....
واحلفوا لي بأن راي صواب
لم نكن قط في ذا العمل مغبون
وإذا مت مذهبي فالدّفن
أنني نرقد في كرم بين الجفن
وتضموا الورق على كفن
والعنب كل من كل عنقود
فيغرس في قبري العرجون[34].

وما يُلاحظ بالنسبة إلى غرض المدح في الأزجال الأندلسية، هو أنهم يفتتحونه في كثير من الأزجال، على طريقة الشعراء القدماء، حيث نُلفي مقدمات غزلية، مثل قول مدغليس في زجل يمدح فيه ابن صناديد، من بحر الرمل، مطلعه :

الهَوَى حَمّلني ما لا يُحتَمَلْ تُرِدِ الحَق لسْ لِمَنْ يَهوى عقل[35]

فبعد المقدمة الغزلية التي اشتملت على سبعة أبيات، ينتقل مدغليس إلى المدح، ويحاول أن يخلع على ممدوحه الصفات التقليدية المعروفة، التي يخلعها الشعراء على ممدوحيهم، كوصف الممدوح بالجود، والكرم ،والشجاعة، وما إلى ذلك، فيقول:

لا مَلِيحْ إلا الذي نَعْشَقْ أنَا ولاَ قايد إلا ذا المولَى الأجلْ
أَبَ عَبْدِ اللّهِ الذِي أَسسْ لُوجَاه بِنْ صناديدْ تَبنى واحْتفلْ
وَلوُ هِمهْ قَدْ عَلتْ فَوْقَ الهِممْ فَهْو لا يَرْضَى الثُريا عَنْ نَعَلْ
الرفيعْ الماجدْ الحُر الشريفْ الشجاعْ الفارسْ الليثْ البطل[36].

وعلى هذا النسق تمضي معظم قصائد مدغليس الزجلية المدحية، فهي لا تختلف من حيث دلالاتها عن قصائد المدح التقليدية التي تُستهل بالغزل، ثم يتم فيها حُسن التخلص إلى مدح الممدوح، ووصفه بالشجاعة، والكرم ،والجود ،والعفة ،وغيرها من الصفات والخلال العربية المعروفة، فالفرق الوحيد بين القصائد القديمة ،وأزجال مدغليس في المدح، هو أن لغتها تأتي ملحونة.

ومن أزجال المديح أيضا ما كتبه ابن قزمان من زجل في القاضي أحمد بن الحاج، وما كتبه معاصره أبو عبد الله بن خاطب في مدح القاضي بن أضحى الهمداني الغرناطي ، المتوفى سنة : 540هـ، وغيرها.

ويبدو أن أول من طوع فن الزجل لموضوعات التصوف هو عبد الحق بن سبعين، بيد أنه لم يشتهر في ذلك شهرة تلميذه الششتري، حيث إنه أضحى مدرسة قائمة بذاتها في الزجل الصوفي، كان لها كثير من الأتباع في عصره، وبعده، تغنياً ،واحتذاءً.

فقد أحكم الششتري صنعة الزجل، وبلغ فيها مستويات عالية، ولقي استحساناً، وقبولاً واسعاً، وأثنى على أزجاله عدد كبير من النقاد، والباحثين، حيث يعد الغبريني أزجاله في غاية الحسن، وله ما يزيد عن ثلاثين زجلاً، وربما قد تكون بعض أزجاله ضاعت، وهو في بعض أزجاله يُعارض ابن قزمان، ويتناص معه، كما أنه يستوحي بعض خرجاته، و يبدو متأثراً بألفاظه، وأساليبه، بيد أنه يتصرف فيها، ويُغيرها في سياق جديد يختلف عن سياق أزجال ابن قزمان، فإذا كان ابن قزمان يتحدث عن الجوانب المادية، والحسية، فالششتري يتحدث عن تجربته الروحية الصوفية، ومن بين أزجال الششتري في التصوف، قوله:

الحبيب عرفتُو وأنا متُّو خايف
ما يحبّك إلاّ من هو بيك عارِف
مذ عرفت ربّي زالتْ عنّي الأكدار
وانشرحْ لي قَلبِي وبدت لي أسرارْ
وأنا طول حياتي في نور وأنوار
طول حَياتِي نبقى في سرّ الوَظائف
ما يحبك إلا من هو بيك عارِف
يا فقير تجرّد عن ثوب البطاله
واتّبع الحقائق وقل كيف قاله
واستمسِكْ يا عارف بحبل الوِصاله
ولتكن لنفسك عاصي ومخالفْ
ما يحبّك إلاّ من هو بيك عارِف
اترُك الخلايق يا بطّال واجهد
واقطع العلائق وتجوّد وازهد
يبصر الحَقائق نُور قلبك ويشهد
ويوريّك حبيبك من صنع اللّطائف
يا فقير تَجَرد عن هوى الخليقة
واستمسك يا عارِف بأهل الطريقه

وتكون تتبع لأهل الحقيقه
قريب أنت منهُم كَيِّس ومُلاطف
ما يحبّك إلاّ من هو بيك عارِف[37].

ومن الطبيعي أن يتأثر شعراء الزجل بالطبيعة الأندلسية الساحرة، فكل من يعيش في الأندلس، يتأثر بالرياض الغناء، والبساتين الساحرة، ويتغنى بجمالها، لذلك لا نعجب عندما نجد عدداً كبيراً من الزجالين في الأندلس يصفون طبيعة بلادهم في شعرهم العامي، حيث وصف الزجالون الأندلسيون الطبيعة الحية، والطبيعة الصامتة، فعبروا عن فتنتهم بطبيعة الأندلس الفاتنة، فوصفوا الرياض، والأشجار، والأزهار ،والطيور، وما إلى ذلك، وقد اقتفوا آثار بعض الشعراء القدامى ، وذلك في جمعهم بين الطبيعة، والغزل، كما استوحوا في ثنايا أزجالهم أوصاف الشعراء، وصورهم، ولعل أشهر قصائد الزجل التي تناولت وصف الطبيعة الحية والميتة ، قصيدة للزجال مدغليس، يقول فيها :

ثَلاثَ أشْيا فالْبَساتِينْ لسْ تُجَدُ في كل مَوْضِعْ
النسيمْ والخضرَ والطيرْ شِمْ وَاتنزه وإسْمَعْ
قُمْ تَرَى النسيمْ يُوَلْوِلْ والطيورْ عَلَهْ تِغَـردْ
والثمارْ تُنْثُرْ جَوَاهِـرَ في بِساطْ من الزمـردْ
وبِوَسطِ المرجِ الأخضَرْ سقْى كالسيفِ المُجَردْ
شبهبْ بالسيفِ لما شُفِتْ الغدِير مدرعْ
و رَذاذا دق ينْـزِلْ وشُعاع الشمسِ يضرَبْ
فتَرَى الواحِدْ بِفضض وتَرَى الآخَرْ بِذهـبْ
والنباتْ بِشرَبْ يسْكَرْ والغُصُونْ تُرْقصْ وتِطْرَبْ
وتريدْ تِجِي إلِينَـا ثُم تِسْتِـحي وتِرجَـعْ

وجوارْ بِحَلْ حُور العِين في رِيَاضْ تُشْبِـهْ لِجَنـا
وعشيةً قصيـرا تنظرَ الخُلْـعَ تُجَنا
لِشْ تريدْ نفَارقُوهـا وهي تحْمِلْ طَاقَاً عَنـا
وكَأن الشمْسَ فيهـا وَجَهْ عاشقْ إذ يـودِعْ
إسْتَمِعْ أُم الحُسُنْ كِفْ تِلْهشمَكْ إلى الخَلاعـا

بنَغَمْ تِرُد الأشْيـاخ للمجـونِ وللرقاعـاَ

غَردَتْ مِنْ غُدوَ لليل		ومَا كَررِتْ صِنَاعـا
يسْمَع الخُليعْ غِنَاهَا		ويحُسْ قَلْبُ يخَلعْ [38].

إن هذا الزجل يعد من أعذب، وأجمل، ما نظم في وصف الطبيعة ،نظراً لما ينطوي عليه من أخيلة ،وتشبيهات بارعة، وما يموج به من حركة، وصوت، وما ينتشر فيه من ألوان، وأصباغ، وهو يمثل صنعة مدغليس أصدق تمثيل،من حيث إنه تبدو فيه قدرته البارعة على استخدام عناصر الحركة ،والصوت، وما يتولد عنه من حياة، وحيوية، فالنسيم يتجسد في صورة إنسان (يولول)، ورذاذ القمر(يدق)، وأشعة الشمس (تضرب)، وتشيع الحركة ،والحياة في جنبات الروضة، فالنبات (يشرب) ،و(يسكر)، والغصون (ترقص وتطرب)، ومع هذه الحركة تبدو براعة مدغليس في استعمال الألوان، فيتجلى للقارئ تساقط الشمس بأشعتها الصفراء على المروج (الخضراء)، ويظهر اللون الفضي (بجانب اللون المذهب)، ومع إعجابنا بقدرة مدغليس على رسم لوحته، فإننا نلاحظ غلبة سلطان الشعر عليه، فهو يدور في فلك الشعراء، ويتنفس في أجوائهم، ويستمد أوصافه، وصوره من أوصافهم، وصورهم ، كتشبيه النهر بالسيف،والغدير بالدرع، وتشبيه الشمس باصفرارها لحظة الوداع ، بلون العاشق لحظة الفراق، كلها صور مألوفة عند الشعراء، مما يؤكد طغيان سلطان الشعر على الزجل، ويظهر في كثيرٍ من الأزجال التي كُتبت في الهجاء،أن الزجالين قد بالغوا كثيراً،وأسرفوا في حشد الألفاظ العامية التي تُسمع في الأحاديث اليومية البسيطة،وقد لجأ بعضهم في هجائه إلى السخرية، والفكاهة،ويُسمى الهجاء لدى شعراء الزجل « لهجو »، و«الشحط»، أو «الدق»، عند أشياخ مراكش، وكلاهما بمعنى الضرب،والمُهاجمة، وكان الهجاء أحد الموضوعات الزجلية الجديدة، التي استحدثت،وأدخلت في عصر المرابطين، والموحدين بالأندلس، لقد طرقه الزجالون «بقسوة وإقذاع»،لأن الزجالين أكثر فحشا، وأشد إقذاعا، ولاسيما أن حصيلة ألفاظ الذم،والشتم، والفحش أكثر وفرة، واستعمالا في العامية منها في الفصحى وقد اشتهر« أبو علي الدباغ» بأزجاله الفاحشة في الهجاء، وله زجل مشهور في هجاء طبيب، لجأ فيه إلى الهجاء الفُكاهي الساخر، حيث يقول فيه :

إن ريتْ من		يشتكي من
عَداك		طيخْتل

وتريد أنْ يُقبرا		احمِلُ للمريخْ

قد حلفْ ملك الموت بجميع آيمانُ
ألا يبرح ساعهْ من جوارْ دكانُ
ويريح روحُ ويعظم شانُ
وفساد النيا تحت ذاك التوبيخ
بقياس الفاسدْ وبدينُ الحمروجْ
يَخُذِ الصفراوي ويرد مفلوجْ
للصحيح لسْ يسمح بمريقة فروجْ
ويحيل المحموم على أكل البطيخْ
وغَنَى إن طَب فيرد يسْعى
والمنى يطاق في مُرُوجُ تُرعَى
يسقي ما يسقيه يحتبسْ في الأمعا
احتباس أيدي العارْ بحبال التوبيخْ
قوة تتنقَّى من عطاهْ تنقِيَّا
ويرى أكباده في الطسيس مرميَّا
تنبرى أنياطُ وتقع ملويّا
مثل شعر العانا إن حُلِق بالزنيخ
وشرابُ الممدوح مثل سُكَّر ذبَّاخْ
فالزجاج يَتقليط لخروج الأرواح[39]

كما تناول بعض الزجالين، موضوعات أخرى كوصف وضعية الموريسكيين الذين ظلوا في إسبانيا بعد أن سقطت غرناطة سنة :897هـ(1492م).

خاتمة

وخلاصة القول، لقد كان الزجل فناً أندلسياً خالصاً ، نشأ في الأندلس ، وانطلق منها، فهو يُمثل إلى جانب الموشحات ، الشق التجديدي في النص الشعري الأندلسي، وقد ذاع ،وانتشر في المغرب ،والمشرق ، و عبر عن هواجس المجتمع ، بلغة المجتمع العامي الشعبية.

الهوامش

[1] ابن خلدون :المقدمة، منشورات مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر بيروت، 1956-1961م، ج:3، ص:404.

[2] محمد مرتضى الزبيدي:تاج العروس من جواهر القاموس، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د، ت، مادة: زجل، الجزء السابع، ص:355.

[3] المعجم الوسيط : منشورات مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مصر، ج:01، ط:03، 1405 هـ/1985م، ص:403.

[4] مجدي محمد شمس الدين : الاتجاهات المعاصرة في دراسة الزجل الأندلسي، مقال منشور بمجلة المناهل، مجلة فصلية تصدرها وزارة الثقافة المغربية، العدد :86، يونيو2009م، ص:163 وما بعدها.

[5] عباس الجراري:الزجل في المغرب القصيدة، منشورات مكتبة الطالب، الرباط، المغرب الأقصى، د، ت، ص:46.

[6] إبراهيم أنيس : موسيقى الشعر، منشورات دار القلم ، بيروت، لبنان، 1972م، ص:258.

[7] صفي الدين الحلي: العاطل الحالي والمرخص الغالي، (تح :د.حسين نصار)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 1981 م، ص:14.

[8] مصطفى الشكعة:الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط:04، 1979م، ص:448.

[9]الأبشيهي: المستطرف من كل فن مستظرف للأبشيهي (تح: مفيد محمد قميحة)، ج2، ص: 448، دار الكتب العلمية، بيروت، وقد نقل الأبشيهي باختصار هذا النص من كتاب العاطل الحالي والمرخص الغالي لصفي الدين الحلي.

[10] صفي الدين الحلي : العاطل الحالي والمرخص الغالي، (تح :د.حسين نصار)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 1981 م، ص : 2 وما بعدها.

[11] مقدمة ابن خلدون، ص:53.

[12] عبد العزيز الأهواني:الزجل في الأندلس، منشورات معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة، مصر، 1957م، ص:52.

[13] عبد العزيز عتيق:الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ،بيروت، لبنان، 1976م، ص:397.

[14] المقري التلمساني:نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ،دار صادر، بيروت، لبنان، 1388هـ-1968م، ج:4، ص:356.

[15] سامي يوسف أبو زيد :الأدب الأندلسي، منشورات دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمّان، الأردن، ط:1، 1433هـ-2012م، ص:126 وما بعدها.

[16] قيصر مصطفى:حول الأدب الأندلسي، منشورات مؤسسة الأشرف للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، (د.ت)، ص:103.

[17] صفي الدين الحلي:العاطل الحالي والمرخص الغالي، ص:2.

[18] صفي الدين الحلي:العاطل الحالي والمرخص الغالي، ص:5 وما بعدها.

[19] صفي الدين الحلي:المصدر نفسه، ص:7.

[20] حسين نصار : الشعر الشعبي العربي، منشورات إقرأ، بيروت، لبنان، د، ت، ص:113.

[21] إميل بديع يعقوب:المعجم المفصل في علم العروض والقافية فنون الشعر، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: 1 ، 1411هـ/1991م، ص:252 وما بعدها.

[22] عباس الجراري:الزجل في المغرب القصيدة، ص:133.

[23] إبراهيم أنيس:موسيقى الشعر ، ص:261 وما بعدها.

[24] صفي الدين الحلي:العاطل الحالي والمرخص الغالي، ص:15.

[25] صفي الدين الحلي:المصدر نفسه، ص:16.

[26] المصدر نفسه، ص:17.

[27] سعد بوفلاقة:الشعريات العربية:المفاهيم والأنواع والأنماط، منشورات بونة للبحوث والدراسات، الجزائر، 1428 هـ-2007م، ص:110.

[28] استقينا هذا الزجل من كتاب:الأدب الأندلسي لسامي يوسف أبو زيد، ص:133.

[29] استقينا هذا الزجل من كتاب:دراسات في فني الموشحات والأزجال لأحمد محمد عطا، منشورات مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط:1، 1419هـ-1999م، ص:26 وما بعدها.

[30] المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

[31] أحمد محمد عطا:دراسات في فني الموشحات والأزجال، ص:28 وما بعدها.

[32] أحمد شايب:الضحك في الأدب الأندلسي، دراسة في وظائف الهزل وأنواعه وطرق اشتغاله، دار أبي الرقراق للطباعة والنشر، الرباط، المغرب الأقصى، ط:2، 2008م، ص:386.

[33] ديوان ابن قزمان، نصاً ولغة وعروضاً، ف.مورنطي، مدريد، إسبانيا، 1980م، والقاهرة، مصر، 1995م، ص:598.

[34] صفي الدين الحلي:العاطل الحالي والمرخص الغالي، ص:16.

[35] العاطل الحالي والمرخص الغالي، ص:17.

[36] المصدر نفسه، ص:16.

[37] استقينا هذا الزجل من كتاب:مختارات من الشعر الأندلسي وفصول في شعر المغرب وصقلية، وفي الموشحات والأزجال، لرضوان الداية، ص:251 وما بعدها.

[38] ابن سعيد المغربي(علي بن موسى):المغرب في حلى المغرب، ج:2، تحقيق:شوقي ضيف، منشورات دار المعارف، القاهرة، مصر، ط:3، 1978م، ص:220.

[39] استقينا هذا الزجل من كتاب:الأدب الأندلسي لسامي يوسف أبو زيد، ص:133.